

## الطائف قبل عام 1900

هانز غاويه \*

## العصور الأولى:

لطالما رثاها المفكرون والأدباء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قائلين: "ما لم يفعله البرابرة فعله آل بربريني". انتابهم حزن عميق بسبب خراب روما الذي خلفته عائلة بربريني الجوثية والأمراء القوطيون في روما في القرن السابع عشر، وربما يعاود هذا الحزن الكرة مرة أخرى في يوم من الأيام إذا ما نظر المرء لهذا الدمار الذي نقلته عدسات شهود الماضي، أو إذا ما انجلى الإهمال والتقاعدس في استحضار تلك الشهادات التي لا يمكن استرجاعها والتي كانت واقعًا في البلدان العربية، ولو أن الوضع لا يقتصر على البلدان العربية وحدها.

مع مطلع القرن الثالث عشر كتب العالم العربي ياقوت الحموي في مجلده الثالث، صفحة 496: "الطائف مدينة صغيرة رغم عظم اسمها"، والحقيقة أنّ الاسم والشهرة التي وصفت بهما الطائف كانا دائماً أعظم من كونها تقتصر على مسمى مدينة، فالطائف -القابعة بجوار مكة والمدينة المنورة- كانت أحد أبرز الأماكن خلال الحقبة البطولية لعصر صدر الإسلام، التي ولدت من رحمها أبرز الشخصيات التي كان لها دور جوهري في البطولات والمعارك الحاسمة في بزوغ فجر الإسلام، ومع ذلك، لم يكن الإسلام قائداً لهذا الرخاء والنماء الدائمين في الطائف، وهذا ما أضفى تمييزاً واضحاً بين مصيرها ومصير الحرمين الشريفين: مكة والمدينة والمنورة.

في تلك الحقبة من الزمان وقبل البعثة النبوية، كانت الطائف تمثل بالنسبة لشعوب مكة رمز النضارة والجمال الذي يفقدونه في وديانها القاحلة والجافة، حتى أن الأثرياء منهم والقادرين كانوا يستغلون الطائف في قضاء الأشهر الحارة بها أو بالتجوال حولها، وبعضهم كان يمتلك مساحات من الأرض تعج بأشجار الفاكهة والنخيل والكرم والثمار الأخرى مبنياً بها بعض الأكواخ والمنازل؛ بيد أن أهل مكة الذين كانوا عاجزين عن قضاء الصيف في الطائف -وتلك كان وضع الغالبية العظمى منهم- كثيراً ما تاقوا واشتاقوا للذهاب للطائف في ظل الحر الشديد والشحوب القاتم بمكة.

وقد زادت الأبعاد الحقيقية لهذه العلاقة بين مكة والطائف لتتطور الأبعاد بصورة مختلفة ومتفاقمة بمجرد أن ابتعد أهالي مكة والطائف عن بلادهم وانخرطوا في الغزوات والمعارك الرامية لنشر الإسلام، بدت مكة في حساباتهم واعتباراتهم البشرية الأكبر والأضخم، في حين كانت الطائف الأكثر نضارة واخضراراً وثماراً، وتحدث من تسنى له الانتقال للطائف عن منزله الذي امتلكه هناك، في الوقت الذي حلم فيه من عجز عن

امتلاك أي شيء هناك فيها أو حولها ببناء كوخ وسط حدائق الطائف، وتحولت بعدها منطقة الحجاز الصغيرة بضياعها المحدودة إلى أطراف مترامية عظيمة في سوريا والعراق، ورغب الكثير من الغزاة في سبيل الله من مكة والطائف أن يحصلوا على أراض في الطائف أو حولها ليستريحوا هناك بعد ويلات وإجهاد الحروب- بعضهم، وهم من المحاربين العظماء- كان قادرًا على القيام بذلك، وهذا ما رفع من مقام واسم الطائف فيما وراء الحجاز، وكان لمناخ الطائف، المتميز بعذوبة أطرافه النائية ونضارة حدائقه الغناء والقرى القابعة فيها- فضلاً عن قربها وعلاقاتها الوطيدة بمسقط رأس النبي، ناهيك عن الإنجازات البطولية التي حققها أبناؤها في عصر صدر الإسلام مقومات كافية كفيلة بأن تجعل الطائف تحظى بهذه السمعة الطيبة الواسعة في تلك الحقبة من التاريخ، وهذا ما تمخض في النهاية عن ما سمي بـ"أسطورة الطائف" التي إذا ما قورنت بدنيا الواقع لوجدنا أنها تعاضمت نماءً خلال القرن الثامن؛ لتتسع بعد ذلك في القرون التالية، والفكرة التي اقتبست عن "ياقوت الحموي" تعد مثالا جيدا للإسهاب والتهويل.

ومع ذلك، كانت هذه المدينة الصغيرة أحد أهم مدن الحجاز في تلك الفترة التي بعث فيها النبي، وصور المستشرق الفرنسي هنري لامنس في كتابه عن الطائف بعنوان "مدينة الطائف في فجر الهجرة"- تلك المدينة بأسلوب شعري ملهم لا- نظير له، حيث تناول لامنس وصفاً للمدينة برمتها في عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام، وتطرق لوصف مناطقها وأطرافها النائية وأهلها وعلاقاتها بمناطق الجوار الخارجي، هذا القدر من الحظ الذي بلغ ذروته، والذي سطره تاريخ الطائف منذ مائة عام في الفترة بين البعثة النبوية ونزول الرسالة ونهاية عصر الأمويين، لا يمكن أن يوصف بهذا القدر من الجمال الذي أضفاه لامنس في كتابه الذي انتقده البعض بدافع الجهل، لقد حاول أن يمسك بتلابيب الرومانسية التي نشأت بهذه المدينة الصغيرة، التي كانت تمثل يوماً من الأيام موطناً لبعض فطاحل صناع القرار في هذه الإمبراطورية العالمية، في وقت أسهب فيه في وصف وإبراز المصايف التي كان يرتادها نخبة وصفوة تلك الإمبراطورية الجديدة، وهو ينشد الأسباب السياسية والعرقية والاقتصادية الكامنة وراء هذه الطلعة البهية.

لم يكن هناك أي أعمال أثرية معمارية ملموسة في مدينة الطائف والمنطقة المحيطة بها؛ بيد أنه مما لا شك فيه أن هؤلاء الرجال حلوا واستقروا بتلك المدينة في وقت بكير، وإلى أن تتوفر المعلومات الأثرية وإحصائياتها، كان علينا أن نعتمد بصفة أساسية على المصادر الأدبية التي تتحدث عن الفترة من 600 قبل الميلاد و1900 ميلادية، وتتضمن هذه المصادر مادة شائقة للفترة بين 600 و750 قبل الميلاد، التي حمل فيها النهوض الكبير لمكة اسم الطائف عالياً، والعلاقة الاقتصادية الوطيدة التي كانت واقعاً بين مكة والطائف كانت من أهم الأسباب من وراء ذلك؛ حيث إن الطائف لم تكن يوماً مقتصرة على كونها مصيفاً للأثرياء بمكة، وإنما أيضاً كانت بمثابة سلة غذاء لمكة. فمكة- المركز التجاري المنحصر بين ضفاف البحر الأحمر وجبال الحجاز- كانت تحصل على مطعمها من قرى وأطراف الطائف، ولذا، ليس غريباً أن نرى قول الرسول الكريم ملموساً إلى

الآن، والذي قال فيه: "مكة جزء من الطائف، والطائف جزء من مكة" (العجيمي، 39)، وليس غريباً أن نرى هذا الحديث النبوي الذي يعود تاريخه للحقبة المحمدية، والمفترض أن يحمل تفسيراً لمعنى "الطائف" (ياقوت الحموي، المجلد الثالث، ص496، وشبيهه بـ العجيمي، 39) يشير إلى العلاقة الوطيدة بين مكة والطائف، وفي هذا الحديث إشارة لما ورد في السورة السابعة والثلاثين بالجزء السادس عشر من القرآن الكريم التي أبرزت فيها شكوى النبي إبراهيم - عليه السلام - لربه، شاكياً من تلك المنطقة القاحلة التي لا زرع فيها ولا ماء، ملتسماً من مولاه أن يغدق على مكة بالثمار، وبسبب هذه الدعوى الإبراهيمية، استجاب الله "عز وجل" لدعائه وجعل الطائف وكأنها خلقت من جديد تتزين بالأشجار والثمار، ولكن قبل أن تسمى الطائف بهذا الاسم، قام فيها بالطواف حول الكعبة، ومن هنا جاء الربط بين الطائف و"الطواف".

بيد أنه بغض النظر عن العلاقة الأسرية والاقتصادية الحميمة بين أهل مكة وأهل الطائف (والتي انعكست في تعدد علاقات الزواج بين أهل مكة وأهل الطائف؛ لامنس 117-135، 1922، وات 138-140، 1979) - والتي ربما تكون سبباً لذلك - نشأت العداوات والتي كثيراً ما كانت بين قبائل قريش بمكة وبين قبائل ثقيف بالطائف، وبالتالي، لم يكن غريباً أن نرى النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد لقي عداً في مسقط رأسه في السنوات الأولى من الدعوة، يذهب للطائف، ويلجأ إليها طالباً من أهلها الدعم والمساندة؛ لكنه لقي عناداً من أهل ثقيف ورفضاً باتاً لما جاء به، ليجد صعوبة في إقناع أي من ثقيف بالإيمان بالرسالة السماوية. (سيرة ابن هشام، 279-280).

وفي العام الثامن للهجرة، عاد النبي - صلى الله عليه وسلم - بجيشه إلى مدينة الطائف لغزوها، ولكن للمرة الثانية لم يحالفه الحظ، ولكن بالنظر إلى وصف هذه الحملة والحصار الذي فرض على الطائف من قبل الجيش الذي قاده النبي - صلى الله عليه وسلم - (ابن هشام، 870-874؛ بالادهوري، 55-59)، فضلاً عن التدابير التي قام بها النبي بعد ذلك بعام مذ أصبحت الطائف تحت ولايته، وما تلاها من مفاوضات ومحادثات مع أهل الطائف قبل أن تقع تحت إمرته، سنحصل على الكثير من المعلومات الهامة المتعلقة بمدينة الطائف، وهيئتها والاقتصاد الذي تمتعت به في تلك الفترة. (كيستر، 1980، 1-18).

كانت الطائف "محاطة بأسوار" وبها قلعة، وهذا ما كان يميزها عن مكة والمدينة، اللتين تفتقران إلى وجود أسوار أو قلاع بهما، وقد نالت الطائف هذا الاسم وسميت به بعد أن تم إحاطتها بتلك الأسوار (الطائف المقتبسة من كلمة علو أو ارتفاع عال)، في حين كانت تسمى قبل ذلك واج (بالادهوري، 56 ياقوت الثالث، 495). بخارج السور ثمة صنم اللات المستقر هناك، والذي كان يمثل آلهة الطائف، بيد أن أحد الصحابة قام بتحطيمه لاحقاً بالمعول، وجرده من الذهب والحلي واللآلئ التي كانت تزخره (سيرة ابن هشام، 918).

وقد قاد سكان الطائف - ومن بينهم اليهود من اليمن ويثرب - تجارة واسعة المدى؛ ولكنها كانت سيئة السمعة لاتباعهم أسلوب الربا الفاحش، وبعد رضوخ طيف، سرعان ما قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بمنع الربا فيها، وإضافة إلى ذلك قام بفرض الزكاة على العسل والعنب، وتعرفنا أيضًا من النصوص الواردة على ثمار البرقوق والرمان (بالادهوري، 56-59)، وكذا يمكننا أن نضيف إلى هذه الأصناف ومن دون تردد الحبوب والخضراوات.

شارك بشكل فعال في بناء وتشبيد الدولة الإسلامية الجديدة بالعراق وإيران اثنان من أبناء الطائف هما: زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف، ورغم أننا نفتقر إلى معلومات بشأن ملكيتهما العقارية بأرض الطائف، إلا - أن ذلك مرجح ووارد لأبعد الحدود، وقد عوض ذلك بمعلومات أخرى أتاحت بشأن الأملاك العقارية لشخصيات هامة أخرى بزغت في عصر صدر الإسلام والتي كانت تقطن بمناطق مجاورة للطائف، أمثال عبد الله بن الزبير الذي أصبح فيما بعد الخليفة المناهض لسياسات الخلافة الأموية، والذي خصصت أملاكه مابين جرف والقناة، وكانت القناة بمثابة وإد يسيل من الطائف متجهًا نحو الشمال (بالأدهوري، 13)، ويمكننا تحديد موقع ملكية عقارية أخرى في المنطقة المجاورة للطائف بدقة أكبر، ألا وهي ملكية الخليفة الأموي " معاوية"، ونعرف أنه امتلك أرضًا مجاورة للطائف (بالادهوري، 56)، ويمكننا تحديد موقعها بفضل وجود نقش وكتابة لمعاوية فوق السد شمال شرق الطائف، والتي تعد بمثابة شاهد على أن معاوية قد بنى سدًا عام 1948 (58/678 ميل)، وكانت لعمر بن العاص فاتح مصر وأحد الأصدقاء المقربين لمعاوية - ملكية شاسعة في "واه" جنوب غرب الطائف، والتي شدا بها بعض الكتاب طرِبًا (مثل: ابن الفقيه، 22)، وقد اعتادت سيدات المجتمع حينذاك الحياة بالمنتجات صيفا في رفاهية وترف لا - مثل لهما، وترجع على عرش أركانها الشعراء والفنانون حول الطائف. (لامنس 51-55، 1922).

غارت نجوم الطائف والحجاز عن سماء التاريخ مع سقوط الدولة الأموية، وانتقل المركز السياسي للدولة الإسلامية من البحر الأبيض المتوسط وحتى بلاد الحجاز إلى بغداد، وهي المدينة الواقعة في المنطقة المجاورة للإمبراطورية الإيرانية، "قطسيفون"، وكانت الصلة الوثيقة بين الطائف ونخبة دولة الأمويين بمثابة جرمًا في أعين الحكام الجدد، ففعلوا كل ما يحلو لهم حتى عادت "سبا بالحجاز" دويلة صغيرة ذات أهمية إقليمية فقط كما كانت من قبل.

وكانت المصادر في فترة ما بعد الدولة الأموية (أو المصادر التي تحوي مادة عن مصادر تخص هذه الفترة) قد كتبت غالبيتها بالعراق، وتضمنت القليل بشأن الطائف فيما بعد العهد الأموي، كان الناس يقومون بين الفينة والأخرى بزيارة المدينة وهم في طريقهم إلى مكة، وكثيرًا ما كان يصل أحد أبنائها لشهرة وشعبية إقليمية ساحقة يزداد ثقله من خلالها، وقد أمدنا زيريقي (113-105، 1978) بالعديد من الملاحظات والأوراق النقدية التي تخص 38 شخصية هامة من الطائف، بداية من زيد بن أبي سفيان، وطريق

الحج الذي قامت زبيدة- زوجة هارون الرشيد (809-786) - ببنائه والمسمى بـ " درب الزبيدة" الواقع بين العراق ومكة، مهد لأنشطة البناء في تلك المنطقة المجاورة للطائف، وربما يكون السدان الواقعان بجوار الطائف- أحدهما على الحد الخارجي للمدينة القديمة، والآخر يقع بوادي ليا- ضمن هذه الأنشطة المعمارية، حيث هناك تشابهات فنية بين سدود تلك الفترة، ونعلم أن زبيدة ذاتها كانت تمتلك حدائق كبيرة في المنطقة المجاورة للطائف وأنها قامت ببناء مسجد بالمدينة، وقد تم نشر النص المتعلق بوصف هيكل البناء بواسطة زيريقي (94، 1978، من عجمي، من فاسي).

لم ينقل لنا المسافرون والجغرافيون سوى القليل عن الطائف في العصر العباسي والعصور التالية له، (انظر أسفل 4) ، وكتب هؤلاء المؤلفون والكتاب عن الطائف واصفين إياها بأنها مدينة صغيرة ذات مناخ جيد، ومياه طيبة، ومناطق نائية باهرة، وفي عام 969 انفصلت الحجاز عن الخلافة في بغداد، وتحالفت مع الفاطميين في مصر الذين تولوا الحكم، ومن بعدها أصبحت الحجاز في قبضتهم لعدة قرون، وبعد عهد الفاطميين جاء الأيوبيون (1171) ، ومن بعدهم المماليك (1250) ، ثم خلف الحكم من بعدهم العثمانيون (1516) ، كانت السلطة المحلية - طالت أو قصرت- من خصوصيات ومسئوليات الحكم المركزي بالقاهرة أو إسطنبول، وكان يحكم على قبضتها أشرف مكة، وهؤلاء من نسل النبي - صلى الله عليه وسلم - . (لقراءة المزيد عن حكام مكة، يمكنكم الاطلاع على سنوك هورجرونجي 1888، باب 4-3).

يمكن افتراض وجود علاقة بين مكة والطائف مماثلة لفترة ما قبل الإسلام في القرن العاشر، ويمكن أن يعزى ذلك إلى تميز مكة بكونها مركزاً للدين العالمي، وظهرت حركة جديدة في تاريخ الحجاز، مع ظهور حركة الوهابيين في فترة لا- تتجاوز القرن التاسع عشر، وفي عام 1803 قام الوهابيون بغزو الطائف وعاثوا فيها دماراً وقتلاً، وبعد مرور عشر سنوات، انتصر الجيش المصري عليهم وأجلاهم من الطائف، وسرعان ما تغير الوضع الدولي مع زيادة تواجد البريطانيين في المنطقة برمتها، وبناء قناة السويس ومد خط السكة الحديدية للحجاز، وانتعاش حركة الوهابيين.

ونتيجة لهذه الطفرة الكبيرة وهذا التواجد البريطاني الجم في المنطقة، انجذب العلماء والرحالة الغرب إلى الحجاز، ومن بين الأسماء التي تمثل مرجعاً هاماً في تلك الدراسة - جي ال بورك هارديت (1814/15)، ام.تاميسير (1834)، سي ام داوتي (1878)، واتش - فيبي (1918/19)، وكان لإنشاء ومد خط السكة الحديدية للحجاز الأثر الأكبر في تعزيز السيطرة العثمانية على الحجاز من جديد، ويعد شهود تلك الحقبة من سكان القصور في ضواحي الطائف الذين عاشوا حياة هادئة ومترفة نسبياً.

كادت الثورة العربية المندلعة بقيادة شريف مكة أن تنتهي عصر العثمانيين بعد أن كانت قريبة من الإطاحة بهم من الجزيرة العربية، وفي عام 1916، تم إعلان شريف مكة ملكاً للحجاز، وحصل على لقب "خليفة" بعد ذلك بفترة وجيزة. لم تستمر مملكة الحجاز

وخلافتها طويلاً، لاسيما وقد بدأ الوهابيون بالهجوم على الحجاز عام 1922 وغزوا مكة والطائف عام 1924، ومذ بدء هذا العام، أصبحت مدينة "نجد" هي المنوطة بمركز الحكم في الحجاز.

## 2 - وصف الرحالة الغرب في فترة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

كان سويس جي.ال بورخاردت هو أول الرحالة الأوروبيين الذين أتوا للطائف (124-122، 1830)، حيث قام بزيارتها في الأيام الأولى من شهر سبتمبر لعام 1814، وذلك بعد فترة وجيزة من إجلاء المصريين للحركة الوهابية من المدينة، كان وصفه مختصراً، وغامضاً، ويبدو متأثراً بما خلفته دولة الوهابيين من التدمير والخراب الذي تسبب في طردهم، قادت تلك السنوات المضطربة إلى فقدان الطائف لمكانتها كموضع تجاري بعيد المدى، وهو ما كتبه بورك هاردت في كتابه حين قال: الطائف كانت قبيل الحركة الوهابية". أقبل الناس من مناطق بعيدة إلى الطائف لشراء الملابس، وبيع الحبوب، والقهوة اليمنية (بورك هاردت 124، 1830)، ورغم كونه وصفه موجزاً، إلا أن بورك هاردت ذكر العناصر البارزة في ظهور الطائف. كانت المدينة تقع على سهل رملي، تأخذ تقريباً هيئة المستطيل، ويحميها سور له ثلاث بوابات من أمامها أبراج وخنق، وتترامى قلعة داخل الجدار متصلة به، ذات أبعاد محدودة، ويشير أيضاً إلى بئرين من شأنهما تزويد سكان الطائف بالمياه، إحداهما داخل الجدار، والأخرى خارجه، ويصف المنازل بإيجاز مشيراً إلى الشوارع الواسعة نوعاً ما وكذا يصف مكان التسوق و50 متجرًا صغيراً، والمسجد الهندي ومسجد ابن العباس الذي دمّرت الحركة الوهابية.

يمكن لمعلومات إضافية من قبل رحالة لاحقين أن تلقي بظلالها حول تلك النقطة المركزية الوصفية، وبذلك يمكننا رسم صورة للطائف قبل عام 1900 والتي ستتضح ملامحها أكثر حين تضاف ألوان من مصدرين عربيين. أحدهما يرجع إلى القرن السابع عشر (العجيمي)، والآخر من مطلع القرن العشرين (زيرريقي، 1978)، تيسر لنا هذه المعلومات رسم صورة عن الطائف في الفترة ما قبل العصر الحديث، وعلى هذا الأساس سوف نلقي نظرة على مصادر العصور الأولى، ومنها نفهم صورة الطائف في العصور الوسطى.

كان إصدار تاميسير (305-271، 1840) الوصفي أكثر تفصيلاً عن شبيهه الذي أعد بواسطة بورك هاردت عام 1834، وكان تاميسير قد زار الطائف بعد زيارة بورك هاردت لها بعدة أعوام:

تقع المدينة على ساحل رملي محاط بجبال على شكل حدوة فرس، وقد تم ترميم الجدار حديثاً، وأصبح بحالة جيدة، يبلغ محيطه 3657 ياردات، ويبلغ ارتفاعه 20 قدماً فوق مستوى سطح الخندق، وقد صنعت طبقاته الدنيا من الأحجار، والعلوية من الطوب، والجدار أقوى مما يبدو، فلا يمكن للمدفع أن يخترقه. يبلغ اتساع الخندق الجاف 10 قدم، ويبلغ عمقه 8 قدم، وتبنى الأبراج على غرار طريقة بناء الجدار، لها 9 أبراج دائرية

الشكل، و14 أخرى على هيئة حدوة الفرس، وبرج واحد على شكل نصف مستدير، وواحد سداسي، وتقود ثلاث بوابات للمدينة: بوابة مكة بالشمال الشرقي (ويطلق عليها أيضاً اسم: باب السيل وباب الشريف)، ويحرسها برجان، وفي الجنوب الغربي نجد بوابة السلام المنخفضة ويحرسها برج واحد، وفي الجنوب الغربي تقع بوابة ابن العباس، وبوابة رابعة وهي باب الطرب قبل القرن التاسع عشر، وتوجد ثلاثة أبنية محصنة بالمدينة، قلعة صغيرة، وحصن مربع، والقلعة عبارة عن مبنى من الحجارة مقام على صخرة من الجرانيت، وهي جزء من الجدار الغربي، (ولذا لها مكانة القلعة الكلاسيكية القديمة)، وتعمل كمخزن للبارود ومخلفات الحرب، ويقام بها الحاكم وقت الحرب. أما المبنى الثاني فهو أيضاً من الحجارة، ويقع بالشمال، والثالث مبنى من الطوب ومتصل بالقلعة، يفصل جدار بين القلعة والمبنى الثالث من ناحية والمدينة من ناحية أخرى، وقد كتب تاميسير عن مسجد ابن العباس والمباني الأخرى التي دمرتها الحركة الوهابية مثلما دمرته. يبلغ قياس مسجد ابن العباس 100 x 60 ياردات، ويوجد معرض داخله أسفل السقف، تحمله أعمدة تلتف حول الجدار. يعتبر جدار المسجد الذي يقع في الاتجاه الجنوبي الغربي جزءاً من جدار المدينة، وتبدو المسلة الواقية بالمئذنة ثمانية الشكل، ويقع ضريح مزخرف بشكل مبدع على هيئة مربع غير منتظم الشكل مواجه لوسط المدينة، وبجوار المسجد، وصاحبه هو ابن العباس، الذي تم بناء ضريحين كبيرين، وخمسة صغيرة غيرهما بجوار مسجده وضريحه، وبالإضافة إلى ذلك يستفيض في ذكر "مسجد لادي" الصغير (حالياً مسجد الهادي الكبير)، والإشارة لاثنتين من زواياه. لم يكن السوق مثار اهتمام وأسر لهوى تاميسير، لقد ساعد الفلاحين والبدو في المناطق النائية، ونادراً ما كانت تأتي قوافل البضائع من مكة وجدة. طرح معظم التجار بضاعتهم أرضاً تحت عنان السماء لعرضها للبيع، وكانت الحماية الوحيدة لها ضد الشمس والمطر هي أغطية من الحصائر، ويضيف تاميسير إلى قائمة الأكشاك البسيطة تلك محلات تجارية أخرى ومقاهٍ، واصفاً إياها بصغر الحجم وندرة الأناقة، كما ذكر أنها بحالة جيدة، ويبلغ ارتفاعها نحو طابقين، وبجوار مسجد ابن العباس رأى إحد المنازل القديمة الجميلة، والتي بنيت وزينت بدهاء، وبدت كأنها تحفة متبقية من أفضل العصور. كانت الشوارع نظيفة وواسعة نسبياً، ونحصل على مياه الشرب من بئر داخل الجدار وبئر خارج، بالقرب من باب ابن عباس، وفي شهر يوليو، لعام 1887، قضى داوتي (552-567، 1937) أربعة أيام بالطائف، وكتب كثيراً عن محادثات أجراها مع الشريف حسين والضباط الأتراك؛ لكنه سرد القليل عن المدينة ذاتها.

ويسرد لنا باستفاضة عن قصر الشريف داخل باب السيل، كانت تغلب على الشوارع البساطة، والحوائط من أفضل المنازل المغطاة بطبقة من الجص، ورأى مقهى بالسوق الذي كان محاطاً بمتاجر بسيطة، وأكشاك بدائية، وكان مسجد ابن العباس عبارة عن مبنى قديم أبيض اللون له قبتان، وكانت حالة جدار المدينة سيئة، وكذا حالة المدينة بأسرها شبه مدمرة، والسبب يعزى إلى اكتفاء الناس بالسكن فيها صيفاً. إضافة إلى ذلك يخبرنا

داوتي عن أحجار كانت تعرض عليه أمثال صنمي العُزّي وهُبل داخل المدينة، وصنم اللات خارج سور المدينة بالجنوب. بعد مرور أربعين عامًا آخرين، عام 1918 - زار فيلبي (185-203، 1922) الطائف، وأمدنا بالمعلومات التالية:

كانت المدينة مربعة الشكل، يبلغ قياس كل جانب منها 300 ياردة، وفي العصور الأولى كانت محاطة بسور له آثار تقف في مقارنة غريبة مع جمال المنازل داخلها، واتساع وروعة الكثير منها، ويقع السوق في وسطها. إنها أكبر بكثير من المساحة التي يحتاجها السكان المقيمون بها، يتم تهيئتها لتوافق التجارة الصيفية عندما يأتي كثير من الناس من المدن الحارة إلى الطائف، لم يجد تناغمًا وانسجامًا في السوق. كان للميدان المركزي الرئيس شكل غير منتظم، وعند إحدى نهايتيه يقع مسجد الهادي، والمحكمة القانونية والمباني الإدارية، وفي جنوبه وشرقه نجد مناطق سكنية من أفقر شريحة من السكان، وفي شماله وغربه توجد منازل الأثرياء، وفي الركن الجنوبي الغربي من السور نجد مقبرة قديمة، ووضعت مقبرة جديدة حول مسجد ابن عباس خارج السور. أقيمت القلعة على ارتفاع طبيعي في الغرب، إنه مبنى قوي، مربع الشكل ومستدير الزوايا، ويمكن أن نرى الثلاث بوابات حتى وقتنا هذا: باب السيل بالشمال، وباب الريان بالغرب، وباب ابن عباس بالجنوب، وبجوار باب السيل توجد أطلال مقر إقامة الشريف، الذي دمره الأتراك قبل إجلائهم من المدينة، ونرى بالشمال الغربي أطلال التكنات التركية التي دمرها أتباع الشريف، ويقع مسجد ابن العباس خارج البوابة الجنوبية مباشرة، وهو عبارة عن أروقة متدلّية بأعمدة في الفناء، ومثبت منتصف كل منها قبتان متناسقتان ومتناسبتان، إحداهما فوق مقبرة ابن العباس، والأخرى فوق مقابر أبناء الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

وفي عام 1925، زار روتر (323-344، 1928) الطائف، وعندما قام بزيارتها المدينة، كانت الحركة الوهابية قد سلبتها، ونهبتها بشكل كبير، ودمرتها. شرائح عدة من السكان قُتلت، وأصبح الوضع الاقتصادي راكداً ويعتليه الكساد والجمود. يمدنا هنا روتر بمعلومات ليست بالجديدة، حيث يصف حالة البؤس التي عاصرها، ويخبرنا أنه قد تمت إعادة السور، وذكر أسماء البوابات الثلاث، وكتب عن القباب المدمّرة الموجودة فوق المقابر في فناء مسجد ابن العباس.

## 1- الطائف عند الكُتاب الشرقيين:

اعتمدت المواصفات المميزة للطائف أعلاه على مصادر غربية، أما المصادر الشرقية فهي -فيما عدا المصدر العربي- تختلف في بنيتها بشكل واضح عن المصادر العربية، فبعد تقديم وتحليل المصادر الغربية، أصبح نسج المعلومات من المصادر الشرقية إلى مخزون المعلومات التي تم جمعها ممكنًا، وهذا ما سيمكننا من الحصول على صورة كاملة عن المعلومات التي تخص الطائف.

فلنبدأ بعالم دمشق "خير الدين الزركلي"، المعروف بأنه كاتب أكبر عمل عن الأعلام زار زريكلي الطائف نفس العام الذي زارها فيه "فيلبي"، وفي ذاكرة كتاب "ما قبل



السعودية العربية"، التي تم نشرهم على يد ناشر وبائع كتب بالطائف عام 1978، وتناول إلى حد معين الطائف من الناحيتين: الجغرافية والتاريخية، وما يحيط بها (الزركلي، 1978، 161-80). بالإضافة إلى معلومات عن الأبنية، التي اقتبست معظمها من الفاسي، والحضراوي، والعجمي، ويخبرنا الزركلي عن تقسيم المدينة إلى ثلاثة أرباع، موضحًا، أحجام كل منها ووضعها الاجتماعي، وعدد السكان والمنازل.

ويبدأ القسم مشيرًا إلى شكل وآثار الطائف (92-95 و 113-115)، موضحًا أن "للطائف القليل من الآثار"، ثم وصف المساجد، بداية من مسجد ابن العباس، منتقلًا إلى مسجد عدّاس (أو الراية السنوسي) في ضاحية المطحنة، ومسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وفصل عن مسجد ابن العباس الذي تم استعادته على يد "زبيدة"، زوجة الخليفة "هارون الرشيد" عام 192/808، وتعد هذه المعلومات تابعة لجزء كبير من الطبعة الثانية، وبشكل أساسي من "العجمي".

بعدما كتب بشأن مراسم الجنازة داخل وحول الطائف، ووصف الصخر، وصورها في المنطقة المجاورة للطائف، والآلهة القدماى للعرب، والعلماء، وأبناء الطائف الذين ذاع صيتهم، بداية من "زياد بن أبي سفيان"، (مجموع حوالي 113-95)38، وقد انتقل إلى المدينة ذاتها (113-115) "السور قديم"، وقام شريف غالب بتجديده عام 1813، وأعطى للطائف الاسم الأصلي للكلمة والذي تشتهر به (الطائف <طاف> = يدور حول، بمعنى أن الطائف = ما يحاط بسور، ويوجد بالسور ثلاث بوابات، وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أرباع: حارة الفوق بالغرب، وحارة أسفل بالشمال، ويعيش بها وحارة السليمانى بالجنوب، وتعتبر حارة الأسفل هي الأكبر مساحة، ويليهما في الحجم حارة الفوق، ويوجد بالمدينة 1500 منزل، بعد الحرب ضد الأتراك وفي أثناء وجوده بالطائف، كان عدد المنازل حوالي 1000 منزل، وبلغ التعداد السكاني 5000 فرد. إن المدينة ليست بقديمة، فعمرها حوالي 100 عام، ومساحتها 50م x 25، وتتكون من طابقين، وقد تم تدميرها بشدة أثناء الحرب، ومازالت التكنات والقشلة قيد الاستخدام، وتبلغ مساحتها 300 متر متر x 250.

كان العجمي -الذي توفي بالطائف عام 1701- أول الكتاب الذين استعنا بهم هنا، وقد بدأ كتابته قبل القرن التاسع عشر، وفي الصفحات 84-59، نقّبتس من التسجيل التاريخي الصغير "إهداء للطائف من أخبار الطائف". يصف العجمي مناطق دينية هامة داخل وحول الطائف، كما يصف المقابر والأضرحة والمساجد وغيرها من مناطق ذات أهمية دينية، أو تجليل من الجميع: الكهوف، والأشجار، والآبار.

يبدأ العجمي بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم يصف بعد ذلك مقبرة ابن العباس التي تعدّ بمثابة القديس الراعي للطائف، وهو من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي توفي عام 686 بالطائف. توجد المقبرة في الركن اليميني من قبلة مسجد ابن العباس، وتم بناء الهيكل الذي فوقها بأمر من الخليفة المقتفي لأمر الله عام 1152، وبعد ذلك كتب عن عدد من المقابر الأخرى، من بينها مقبرة محمد بن الحنيفة، وهو ابن لعلي، ومقبرة

عبد الله الطيب، وهو ابن للنبي - صلى الله عليه وسلم - . تلا ذلك وصف لمسجد ابن العباس (73-78)، وتسمح لنا معلوماته والمعلومات المقتبسة بالفعل التي جلبتها المصادر أن نحصل على فكرة وإن كانت غامضة عن المسجد في فترة ما قبل الحركة الوهابية، وللمسجد فناء به أروقة من ثلاثة جوانب، وصالة للصلاة باتساع خمسة أروقة. نجد فوق زاويتي جدار القبلة قباب، وكذا فوق مقبرتي ابن العباس، وعبد الله الطيب، وللمسجد منبر خشبي، ومحراب مصنوع من الرخام، وثلاثة أبواب ومئذنة. تأتي المياة من البئر الموجود بجوارها، وقد بنى المسجد الخليفة العباسي "الناصر لدين الله" عام 1196. وقد أصدر الخليفة "المظفر" أوامر بإجراء ترميمات عام 1276، ويذكر العجيمي إضافة إلى ذلك عدة ترميمات أخرى.

ويلى ذلك ملحوظات تخص اثني عشر مسجدًا آخرين في وحول المدينة:

الراية، بالقرب من مسجد ابن العباس وبجوار شجرة.

الحصن، بوادي واج، بجوار بئر.

بحرة الرجا، بوادي ليا، بجوار بئر.

الريعان بالسلامة.

الجمعة، وبه مئذنة.

المطايبة، قديم وبه مئذنة.

الراحتين، بجوار نبع.

الحابة، باتجاه السلام.

الحضرمي، بُني عام 1680. و

الهادي بالمدينة القديمة، بُني عام 1680.

تلك المساجد بعضها قد بُني في أماكن تتصل بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ، وبعضها بالقرب من الأشجار، والآبار، والينابيع، ويكتب العجيمي عن أماكن أخرى لها وقارها، من بينها كهف قد مكث فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأشجار بأماكن قد جلس النبي - صلى الله عليه وسلم - بها للاستراحة، وبئر، وهناك صلة بعدة طرق بين المياة (الآبار، والينابيع)، والأشجار من ناحية، وهذه الأماكن من ناحية أخرى.

كثيرًا ما ربط العجيمي بين المساجد والأماكن المبجلة، فلنصرف أذهاننا عن هؤلاء الكتاب، الذين كتبوا ما كتبوه، كثر هو أو قل بشأن الطائف، ومنتقل إلى كتاب من العصور الوسطى، فهو لاء الكتاب من الجغرافيين والرحالة قد ذكروا الطائف في أعمالهم التي غطت سماء العالم الإسلامي بأكمله، أو كتبوا عن الرحلات الطويلة التي قادتهم إلى

الطائف، وتقدم خصائص المادة عن الطائف في هذه الأعمال عن طريق كاتب من القرن الخامس عشر "الحيماياري"، 379، الذي لم يسبق له زيارة الطائف، ويمكن تلخيص ما كتبه كما يلي:

أن الطائف موطن ثقيف، وهي مدينة صغيرة وجميلة، ومياهها عذبة، وتتمتع بطقس معتدل، إنها غنية بجميع أنواع المنتجات الزراعية والتي تمتد مكة بها، وبها منتجات غير عادية من الأعناب والزبيب، يعيش بها التجار الأثرياء، وقد اشتهرت بمنتجات المدايح، والأحذية (الصنادل)، ويشتهر جبل غزوان بجوار الطائف بطقسه المعتدل. توفي عبد الله ابن عباس بالطائف عام 688، ودفن بالمسجد الذي بنته ثقيف، بعد دخولهم في الإسلام، وذلك في الموضع الذي اعتاد النبي - صلى الله عليه وسلم - الصلاة فيه.

يمكننا الحصول على نفس المعلومات من جميع الأعمال العربية الجغرافية، مثل "مدرسة بالخي". الإصطخري (19)، وابن حوقل (32)، والمقدسي، ويمكن تلخيص ما كتبه "مدرسة بالخي" كما يلي:

الطائف هي مدينة صغيرة توجد بوادي قورا، وتوجد بها العديد من الأشجار، وتشتهر خاصة بأشجار العنب، تحصل مكة على كل أنواع المنتجات الزراعية منها الطائف، وقد بنيت الطائف فوق جبل غزوان، وذلك هو السبب وراء طقسها اللطيف، وذكروا أيضا منتجات الطائف من الزبيب (ستاخري، 24؛ ابن حوقل، 36). يضيف المقدسي (79)، بأنه يتشابه طقس الطائف مع طقس سوريا، ويضيف فاكهة الرمان إلى قائمة الأعناب المشهورة، ويشير إلى أن الطائف تعتبر منتجا صيفيا لأهل مكة.

سبق اثنان آخران من الجغرافيين العرب هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في النصف الثاني من القرن العاشر في كتابتهم عن الطائف:

كتب ابن الفقيه (22، حوالي 905)، عن اسم المدينة وعن ولاية عمرو بن العاص بالواحات، ويذكر الجغرافي المعني بالجزيرة العربية، والحمداني اليميني (260، حوالي 945)، أنواع الزبيب التي تشتهر بها الطائف، ونوها عن بعض المعلومات عن المنطقة المحيطة بالطائف وسكانها.

لم يخبرنا أحدهم عن المدينة ذاتها، أو عن مبانيها، وهذا يعطي انطباعًا بأن الطائف كانت تحظى بأهمية محدودة في العصور الوسطى؛ لأن كتاب من أمثال "مدرسة بالخي"، قد أمدونا بأوصاف رائعة للبلاد الإسلامية الأخرى (جوب ليستن 1993)، ونفس الشيء قد حدث مع كاتب عربي لاحق، وهو "ياقوت" (كتب حتى عام 1229)، الذي نجد في موسوعته الجغرافية بابًا كبيرًا عن الطائف (III، 494-501)، وفيه كتب كثيرًا عن أهل الطائف أو من لهم صلة بها، وكان هذا هو الغرض الأسمى لعمله، لكنه كتب القليل عن المدينة ذاتها، وما يعيننا من هذا العمل ملخص كما يلي:

تناول بالبداية الطرق المحتملة والمختلفة لتحديد أصل كلمة "الطائف"، ويعلق قائلاً:

"الطائف"، أي وادي واج، ومدينة ثقيف، وفي العصور الأولى كان اسمها "واج"، بها حقول لإنتاج الحبوب، ومزارع لنخل البلح، ومنتجات العنب، والموز، وكثير من الخضراوات، ويقطن أهل ثقيف من قبيلتي حمير وقريش محيطها، وتقع فوق جبل غزوان ولها عدة جداول، ويكتب مضيئاً أنه: رغم اسمها العريق إلا- أنها مدينة صغيرة على شاطئ الوادي، وتتكون من جزأين: أحدها على أحد جوانب الوادي، ويحمل اسم الطائف- ثقيف، والجزء الثاني يقع على الجانب الآخر من الوادي، ويحمل اسم "واحات" (وهو مخطئ في هذه النقطة؛ لأن الواحات تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب غرب الطائف). تختلط مياه الوادي بالمدايع، والمنازل ضيقة. تنمو أنواع ممتازة من العنب في الحدائق حول المدينة، ويعتبر زبيب الطائف من الزبيب المعروف جيداً، ويشبه طقسها طقس سوريا، وتحصل مكة على منتجاتها من الطائف".

من الواضح أن المعلومات التي يسردها "ياقوت" لا تحمل بين طياتها طابعاً جيداً عن الطائف؛ فهو يقول بأنها مدينة صغيرة، لها اسم عريق، ومنازل ضيقة بين بالوعات المياه، لكنها محاطة بحدائق باهية. إن لم نتمكن من الحصول عن معلومات إضافية من مصدر آخر من العصور الوسطى- غير تلك التي بلغتنا من الإصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، وياقوت، وحمياري- لعجزنا عن الغوص في أعماق المعلومات التاريخية للرحالة الغربي "الزركلي، والعجمي". المصدر هو الرحلة الفارسية للعالم والشاعر الإيراني الشرقي "ناصر خوسراو (104-103)، الذي زار الطائف في بداية صيف عام 1051، ويكتب:

"تقع الطائف بالقرب من أكبر رابية من مجموعة من الجبال، ولا يزال جوها بارداً مما دعانا إلى المكوث في حرارة الشمس، حتى وقد أسدلت أشهر خورداد (مايو ويونية) ستارها على المدينة. إنها مدينة صغيرة، وبها قلعة حصينة، وبها مسجدان صغيران هما؛ "بازار وفرايداي"، ومياهها منعشة ورقراقة، وتنمو فيها أشجار الرمان والتين، وهناك مسجد عبد الله بن عباس بالقرب من المدينة المسورة، وقد بنى خلفاء بغداد مسجداً كبيراً بهذه المنطقة، وتقع مقبرة عبد الله بن عباس عند يمين محراب ومئذنة إحدى زوايا المسجد، وقد بنى الناس منازل حول المسجد.

أصبحت الآن صورة مدينة العصور الوسطى أكثر جوهرية قليلاً. لطالما كان للطائف سور، وهذا مثبت منذ العصور الأولى للإسلام "انظر ما سبق" وكان مسجد ابن العباس ومقبرته خارج ذلك السور في القرن الحادي عشر، ثم انضم إلى المدينة المسورة قبل القرن الخامس عشر، وباعتبار أن رأي الحيمياري صائب، فمن المؤكد أنه كان للمسجد نفس التصميم الذي وصفه العجمي من قبل، وكان المسجد هذا قد بني قبل العجمي، وقد كتب الكتاب الذين اعتمد عليهم أنه بسبب رؤية ناصر خوسراو للمسجد قبل 145 عاماً من كتابة الخليفة الناصر لدين الله، ومن الهام أيضاً ما يذكره ناصر خوسراو بأن مسجد فريداي ثاني ربما يكون مسجد الهنود. القلعة بمكانها كما كانت من قبل؛ لأنها بنيت على رابية طبيعية، والبازار/ السوق صغير، كما هو متوقع. بذلك نكون قد رسمنا صورة عن

مدينة العصور الوسطى، التي يمكن من خلالها معرفة مدينة القرن التاسع عشر بسهولة، وتتجلى صورة القلعة ومسجد ابن العباس لتظهر كمعلم رئيس في الصورة بأكملها، وكأنها تنتمي إلى عالم من خيال جامح، حيث يجري الوادي عبر المدينة، كما يقول ياقوت، من المؤكد أنه قد أربك المدينة بوصفه لما حولها، وهذا ما لمسناه منذ أن أهمل استخلاص المعلومات من مصدر مباشر.

### نظرات الطبوغرافية بشأن خريطة الطائف:

تزرخ المادة المطروحة تلك بالنظرات الموجهة لخطة الطائف بغرضها، والسؤال هو:

أين يمكن أن نضع خطة الطائف بين مدن الشرق القريبة: مدن العهد الإسلامي؟

ترجع تلك المعلومات إلى مصادرنا:

- 1- موقع كائن بساحل محاط بالجبال.
  - 2- شكل مربع نوعًا ما.
  - 3- سور له أبراج، بنيت من الحجارة والطوب.
  - 4- خندق أمام السور.
  - 5- قلعة وحصون أخرى.
  - 6- تكنات.
  - 7- منازل بسيطة، صغيرة، كبيرة فيما بعد، مصانة جيدًا.
  - 8- شوارع واسعة.
  - 9- مكان للسوق بالشمال.
  - 10- أرض فضاء، أخرى مفتوحة، أو أرضين.
  - 11- مقاهٍ موجودة بالسوق.
  - 12- سوق بدائي، حتى القرن التاسع عشر فقط.
  - 13- ثلاثة مساجد.
  - 14- أحياء يقطنها أغنياء، وأخرى للفقراء.
  - 15- مقابر.
- وتبقى معظم تلك الخصائص ملازمة لمدينة الطائف حتى عام 1979.
- 16- حي المدينة القديم ذو الشكل المربع نوعًا ما.

17- أطلال من السور، ومن البرج.

18- آثار للخندق.

19- منازل قديمة بأحجام مختلفة.

20- شارعان واسعان.

21- موضع السوق بالشمال.

22- ساحة بالقرب من مسجد ابن عباس.

23- كان هناك مركز السوق، حيث أبصره "فيأبي".

24- الثلاثة مساجد.

25- المقبرة بالجنوب.

معظم هذه الصفات تعتبر مثالا "نموذجيا" من مدن الشرق الأدنى التابعة للعهد الإسلامي (جوب 11-28، 1979)، لكن ما لا- يعتبر "نموذجيا" هو عدم تغييب السوق، أو وجود سوق صغير، حتى بداية القرن العشرين، وكذا الساحات الشاسعة المفتوحة داخل المدينة، ويعتبر تنظيمها الوظيفي المعقد والخاص بمثابة "ابتكار" للعصور الإسلامية الوسطى، وتعتبر كثافة المباني العالية، وضواحيها خارج المدينة المسورة بمثابة ملمح مميز آخر من ملامح مدينة الشرق الأدنى في العهد الإسلامي، ويقودنا ذلك إلى تساؤل، ألا وهو: ما سبب فقدان تلك الأشياء؟ هناك جانتان يمكن الأخذ بهما:

1- مساحة الطائف صغيرة، مقارنةً مع تلك المدن من الشرق الأدنى، التي قامت بدورها كأساس تطوير "نموذج" لمدينة الشرق الأدنى في العهد الإسلامي (جوب-ويرث 59-72، 1985).

2- الفرق بين الطائف والمدن "النموذجية" يعود إلى أسباب إقليمية، حيث إن الطائف ليست جزءاً من تلك الدول، والتي نطلق عليها "قلب البلاد" الإسلامية: مصر، وبلاد الشام، والعراق، وإيران - مهد الحضارات القديمة، التي استعان بها المسلمون من مكة، والمدينة، والطائف، ومن مناطق أخرى من الجزيرة العربية في مجابهتهم أثناء فتوحاتهم الأولى.

من الممكن اعتبار هاتين الإجابتين فرعين لمصدر إجابة واحد. معنى ذلك تفرد الطائف بـ"الطوبوغرافية" ربما كان أساسه هو حجمها، وموقعها. لم يتم تطوير مدن كبيرة بالجزيرة العربية منذ عهد قريب، وتنتضح أن الساحات الشاسعة المفتوحة الموجودة داخل المدينة المسورة، والسوق البدائي هي صور مميزة للطائف قبل العصر الحديث. تعد كثافة المساحة المبنية غير المتقطعة مع أسوار المدينة، التي تصل إلى أعلى نقاطها في السوق، قياسية جدا في الطائف. في خريطة الطائف يمكن الكشف عن آثار لمجموعات من

المباني، تفصلها ساحات مفتوحة، وذلك يميز الطائف عن غيرها من المدن من بلاد الشرق الأدنى، لكنها تربط الطائف بمدن في غرب وجنوب الجزيرة العربية من نفس هئيتها. كانت مكة والمدينة - رغم كونها بلا أسوار تحيطها في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - مناطق مقدسة بالأفراد، في هيئة مجموعات من المباني المغلقة والمضغوطة، ونفس الشيء جيد بالنسبة للمدن الصغيرة والكبيرة باليمن وعمان، سواء أكانت محاطة بسور أو لا-. أولى النماذج المحفوظة بشأن ذلك المفهوم المتحضر هو "أم الجمال"، في وقتنا الحاضر "الأردن" (دى فريز 1982؛ كنوف 1984)، التي دمرها زلزال في النصف الأول من القرن الثامن.

"أم الجمال" هي مستوطنة عربية في فترة ما قبل الإسلام، وبها ساحات كبيرة واسعة، داخل سور المدينة، تفصل تلك الساحات المفتوحة مجموعات المنازل المضغوطة بعضها عن البعض إلى ثلاثة أقسام، ولا- توجد آثار لسوق أو ما يشبه ذلك، ولكن ربما يجوز اعتبار المساحة الكبيرة المفتوحة بمركز "أم الجمال" بمثابة مكان للسوق، ومكان يتجه إليه تجارا القوافل عند مجيئهم حيث يقومون بتنزيل بضائعهم، وترقد الجمال لترتاح، وهنا ينجلي التشابه بين الساحة الكبيرة والمفتوحة، ومكان السوق بالطائف، ويدفع ذلك إلى المقارنة بين وظيفة مسجد الهادي بالطائف، ووظيفة كنيسة السوق بأم الجمال. تعتبر أم الجمال مدينة صغيرة بقدر ما يكون حجمها، وينقص قدر كبير من المباني الكثيفة في جميع أنحاء المدينة المسورة والمتاجر عنصر "الكياسة"، نوعاً من سوق بروتو.

وكما ذكرنا من قبل؛ بأننا نواجه نفس العجز في "الكياسة" في جنوب الطائف في سادا وأماكن غيرها باليمن، وإذا ما واجهنا مفهومًا في خريطة المدن الصغيرة، والكبيرة مشابها لخريطة الطائف في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، وإذا ما وجدنا مفاهيم مماثلة في مستوطنات عربية في فترة ما قبل الإسلام، مثل أم الجمال، فعلينا أن نستنتج أن مثل هذا النوع من المستوطنات مقترن بالعرب في الجزيرة العربية، وعلى وجه التحديد بنظامهم الاجتماعي، وأسلوبهم في الحياة، الذي تطور على مدى زمن طويل.

سرعان ما كان يصطدم كل من عمل بغرب وجنوب الجزيرة العربية بالمنظمة القبلية من السكان المستقرين، ألا ينبغي أن تؤثر تلك الميزة للمجتمع العربي على البنية الداخلية لمدن وبلاد شبه الجزيرة العربية "الطاهرة"؟ ذلك أكثر احتمالاً؛ لأنه يمكن إيضاح ما يكمن وراء المساحات المفتوحة داخل المستوطنات عن طريق بنية المجتمع العربي، وبالمثل ذلك جيد في حالة غياب السوق.

للمساحات المفتوحة ووظيفة مزدوجة، فمن ناحية، كانت تلك المساحات بمثابة مناطق عازلة بين الجماعات القبلية الفردية، أو الجماعات الجانبية داخل المستوطنة، ومن ناحية أخرى، عملت كأماكن للسوق، ولاستراحة القوافل، ولم تنشأ تلك المساحات بنية مبيتة؛ لأن تصبح أسواقاً، لم تبين خصيصاً بغرض أن تكون مراكز للأنشطة الاقتصادية لمنطقة معينة حيث أسست تجارة التجزئة، وتجارة المبيعات، والحرف، والشئون المالية سوقها

المعماري، والوظيفي، وقد نفت الطائف فكرة التطوير الكامل لسوق بمدنها، أو بلادها، ويمكن إيضاح ذلك أيضا من قبل المنظمة الاجتماعية للمجتمع العربي، التي قادت المسيرة نحو تطوير الأسواق القبلية خارج المستوطنات، وعلى تلك الأسواق بالمدينة أن تتنافس مع غيرها من الأسواق القبلية، وقد نجحت أسواق قلة من المدينة في هذه المنافسة. في مثل هذه الحالات، تمثل قوة مركزية قوية، أو مجموعة لها القدرة على الهيمنة، القوة الدافعة، وخير مثال على ذلك: سنا باليمن (بيتزلر 1987؛ دوستال 1997).

تبدو الطائف كما لو كانت تمثل ذلك النوع من المدن المختلف عن مدن الشرق الأدنى في عهد الإسلام، مع تشابهها الكبير مع المدن "الإسلامية العادية" بقلب البلاد الإسلامية، بيد أنها تمتاز عن تلك المدن، بوجود الساحات المفتوحة الكبيرة داخل سور المدينة، وانعدام السوق، أو وجوده بشكل بدائي، وقد عنيت بالتطوير الذاتي لتبدو في رداء متحضر، ترتدي إياها بأيدي أهل الجزيرة العربية، غربها وجنوبها، ومن الاحتمالات الراجحة أنهم قد وصلوا بقدر المستطاع إلى المدن التي اكتشفها العرب بغرب وشمال أفريقيا، يمكن مقارنة ذلك التطور بما حدث في شرق إيران وما وراءها، فهناك نوع خاص من المدن، تدعى "مدينة شاريستان"، قد دخلت في حيز التطوير. (جوب 55-57، 1979).

\*\*\*\*\*

### قائمة المراجع

- البلادهوري، أبو العباس أحمد، كتاب: فتوح البلدان. أي دي. جي. دي جويج ليدين 1866.
- بيتزلار، الاضطراب الاجتماعي، والتغير الثقافي في السعودية العربية، ويسبادين 1987.
- 1830 بورك هارديت، جي أي، رحلات في الجزيرة العربية ويمار، .
- دوستال، و، سوق صنعاء، وين 1979.
- 1937 داوتي، سي ام داي الوحي في الجزيرة العربية، لبيزيج .
- الفاسي، تاكي ودين، أبو الطيب: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، أي دي أي وستين فيلد.
- (معاد الطباعة)، بيروت 1964.
- الفيروز آبادي محمد ب. يعقوب: القاموس، القاهرة، ان واي.
- 1985 جوب، اتش وأي. ويرث: أليبو، ويسبادين .
- 1952 هيكل، ام اتش: في منزل الوالي، القاهرة .



- الحمداني، حسن بن أحمد: صفات جزيرة العرب، أي دي ايه، الحوالي، الرياض 1974.
- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروضة: المعطار في خبر الأقطار، أي دي أي عباس، بيروت. 1975.
- ابن الفقيه الحمداني، كتاب البلدان أي دي جي دي جويج، ليدين 1885.
- ابن حوقل أبو القاسم: كتاب صورة الأرض، أي دي جي. انتش كراميرز، 9-ليدين 1938.
- ابن هشام، أبو محمد: سيرة سيدنا محمد رسول الله. أي دي الف ووستين 9-فيد، جوتينجين 1858.
- الإصطخري، أبو إسحاق، كتاب: مسالك الممالك، أي دي جي دي جويج، ليدين 1927.
- كيستير، ام جي، دراسات في الجاهلية، و صدر الإسلام، لندن 1980.
- كوب، انتش أند جي سويزر (أي دي)، التنمية في الجمهورية العربية اليمنية، ويسبادن 1984.
- لامنس، انتش مدينة الطائف العربية في عهد الهجرة. بيروت 1922.
- مايلز، جي سي كتابات صدر الإسلام بالقرب من الطائف بالحجاز، في 242-236 (1948) جريدة دراسات الشرق القريب 7.
- المقدسي، شمس الدين أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أي دي جي دي جويج، ليدين 1909.
- 1939 نالينو، سي ايه السعودية العربية، العجر .
- نيوحر سي، السفر عبر جزيرة العرب وغيرها من الدول بالشرق، ايدينبورغ 1792.
- 1985 نيونار - ايبيرهاارد أي سعدة، ويسبادين .
- 1922 فيلبي انتش اس تي جي بي، قلب الجزيرة العربية، لندن .
- 1928 روتير، أي المدن المقدسة بالجزيرة العربية. لندن .
- سكارابي، ام داس وونهوس ووف دير أرابسكين هالبيينسيل في الفن 77-90 (المعماري 9) 1979.
- سكارابي، م: دير بازان توبينجين 1985.

- سكويزر، جي التغير الاقتصادي والاجتماعي في نظام التوزيع القروي. أسواق أسبوعية بجمهورية اليمن العربية في بريدهام، بي آر (أي دي)، الاقتصاد، والمجتمع، 107-121، والثقافة في اليمن المعاصرة. لندن 1985.
- سيجير، م: هيكلية عناصر مدينة طهران ونموذج للمدينة الشرقية الحديثة في 21-38 (1975) جغرافية 29.
- سنوك هورجرونج، سي: مكة دين هاج 1888.
- 1840 تاميسير، م، رحلة إلى الجزيرة العربية، باريس .
- العجيمي، حسن بن علي، إهداء اللطائف من أخبار الطائف، ي ام، سعاتي، الرياض 1973.
- 1977-دي فريزر، ب: مشروع أم الجمال(1972) (في إدارة الآثار السنوية بالأردن 99-116 (1982) 12.
- وات، و. ام، محمد في مكة، أكسفورد 1979.
- ويلحسين، جي، بقايا الوثنية العربية، (إعادة طباعة)، برلين 1961.
- ويرث، أي: مشكلة بازار، (سوق الشيوخ، كارسى)، محاولة تعريف، النظرية (الاقتصادية التقليدية من مركز المدينة الشرقية الإسلامية، في الإسلام 51 (1974) 203-260 و 6-46، (1975) 52.
- ياقوت الرومي، شهاب الدين: معجم البلدان، أي دي اف، ووستينفيلد، 70-لايبزيغ 1866.
- الزركلي، خير الدين، ما رأيته وما سمعته، أي دي، ايه كامل. الطائف (1978).

\*\*\*\*\*

### الحواشي:

(\* برفيسور من ألمانيا، جامعة تيوبنغن.